الصحراء في أبحاث الشيخ المهدي البوعبدلي

إقليم توات آنموذجا.

د. محمد برشان

جامعة بشار ــ الجزائر

شغل إقليم توات بحكم موقعه الجغرافي، ودوره التجاري، حيّزا كبيرا في الدراسات التاريخية حول الصحراء. سواء تعلّق الأمر بالدراسات الأوروبية ذات التوجه الاستعماري، أو ارتبط ذلك بالأبحاث الوطنية التي ركزت في معظمها على الجانبين التاريخي والثقافي للإقليم. ويمتلك الاقليم رصيدا حافلا في الميدان الثقافي حيث ضم مراكز اشعاع، وخزائن علمية جمعت نوادر المخطوطاتمن مختلف بقاع العالم.

من المؤرخين الجزائريين الذين أولوا اهتماما مبكرا وشاملا في أبحاثهم لإقليم توات يبرز الشيخ المهدي البوعبدلي كرائد في هذا المجال. ويظهر ذلك جلّيا في زياراته المُتكررة، ومشاركاته العديدة في الملتقيات العلمية التي احتضنها إقليم توات ابتداء من سنة 1978، في إطار النشاط الثقافي لوزارة الشؤون الدينية. وكذا مقالاته العلمية التي نُشرت عبر مجلّتي الثقافة والأصالة.

Résumé :

Vu la position géographique et le rôle commercial, la zone de Touat occupe une place importante dans les études historiennes soit à l'échelle internationale ou nationale sur le Sahara.

Parmi les grands historiens qui ont travaillé sur Touat, nous citons Cheikh el mahdi et bouabdali, qui a participé dans plusieurs manifestations scientifiques depuis 1978 et qui a publié énormément d'articles sur Touat.

اعتمد الشيخ المهدي البوعبدلي في الدراسات التي أنخزها عن الصحراء عموما وإقليم توات بشكل خاص على المصادر الأوّلية التي تكتنزها الخزائن والكتاتيب، أو النسخ المُترجمة للمخطوطا التي صادرتها السلطات الاستعمارية أثناء احتلالها لإقليم توات. ومن خلال تلك الدراسات ركّز

البوعبدلي في بحثه على الجوانب الخفيّة التي كثيرا ما يغفل عن ذكرها المُؤرخون، أو يتّم الإشارة إليها عرضا لا غرضا في المراجع والبحوث التاريخية لقلّة المصادر أو فقدان بعضها الآخر.

إنّ الإشكالية التي حاولنا معالجتها والوقوف على بعض جوانبها من خلال هذا المقال يمكن صياغتها في التساؤلات التالية: أين تكمن أهمية إقليم توات في تمتين الروابط الحضارية والاجتماعية بين مناطق الشمال والجنوب بمنظور الشيخ البوعبدلي؟ وما أثر الأحداث التي عرفها الإقليم في إثراء المنظومة الفقهية، ودعم النزعة التجديدية في العالم الإسلامي؟ وما المنهج الذي سلكه الشيخ المهدي البوعبدلي في أبحاثه، وكتاباته حول إقليم توات؟

تقديم اقليم توات.

يُشكّل إقليم توات جزء مهما من الصحراء الإفريقية الكبرى، وهو يقع في أقصى الجنوب الغربي الجزائري على خطي طول 4° شرقا و3° غربا، وبين دائرتي عرض 25° و30° شمالا. يُمثل هذا الموقع امتداد طبيعيا لمنخفض تنزروفت نحو الشمال، ويتربع الاقليم على مساحة تزيد على ثلاثة ألاف كلم^2. يحده العرق الغربي الكبير ووادي أمقيدن من الشمال، وهضبة تنزروفت وجبال مويدرة جنوبا، ويحده من الشرق العرق الشرقي الكبير، ووادي مسعود غربا.[1] ويشتمل إقليم توات على ثلاث مناطق مشهورة وهي: قورارة، تيدكلت، وتوات.

إنّ هذا الموقع الجغرافي الممتاز الذي حظي به إقليم توات جعل منه منطقة عبور، وأهّله بأن يشكل وعبر المراحل التاريخية جسرا تجاريا، ومحور ربط اقتصادي حيوي بين الشمال والجنوب من جهة. وبين الشرق والغرب من جهة أخرى. تعبر من خلاله القوافل التجارية نظرا لطول المسافة، وصعوبة المسالك وخطورتها بالصحراء. ولم يقتصر دور إقليم توات على تنشيط حركة القوافل التجارية فحسب، بل كان أيضا معبرا لركب الحج القادم من تافيلالت، وغيرها من واحات الجنوب المغربي.[2]

تاريخيا ظهر هناك تباين كبير بين المؤرخين في أصل كلمة "توات" بين من يردها الى الأصل العربي، وبين من يرجعها إلى فترة الاستقرار الأمازيغي في الصحراء. وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته عندما زارها قادما من بلاد السودان الغربي، وحلّ بها في سنة 754هـ/ 1353م، حيث قال:

"...ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر، أهل لثام كهؤلاء. فأخبرونا بأخبار بلادنا، وأعلمونا أنّ أولاد خراج وابن يغمور خالفوا، وسكنوا تسابيت من توات. فخاف أهل القافلة من ذلك.ثم وصلنا إلى بُودا وهي من أكبر قرى توات، وأرضها رمال وسباخ، وثمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة. ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت، وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب. وأكل أهلها التمر والجراد، وهو كثير عندهم، يختزنونه كما يختزن التمر، ويقتاتون به، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس، فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد. وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا..."[3].

كما ذكرها بن خلدون عندما تحدث عن قصورها التي كانت في زمنه(783هـ/ 1381م) تناهز المائتين قصرا، وأنّ قصور تيقورارين كانت تقارب المائة قصر يومها. وقال أيضا بأنّ:"...فواكه بلاد السودان تأتي من توات وتيكورارين ووركلان.." [4]

وقد عبر العياشي عن الرخاء الاقتصادي الذي عرفته توات في كثير من المحطات التي سلكتها أركاب الحج من ذلك منطقة توات إذ يقول: " وسبب إقامتنا في هذه البلاد – تسابت – هذه المدة أن كثيرا من الحجاج ما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات فإنّ الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنمبكت ومن السودان، ويُوجد فيها من السلع التي تُجلب من الغرب، كالخيل وملابس الملف والحرير، فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوق حافل."(5)

الوضع السياسي لإقليم توات.

أشارت جُلّ المصادر التي تعرضت لتاريخ توات إلى أنّ سلطة الدولة العثمانية بالجزائر لم تمتّد إلى ذلك الإقليم إلاّ في حالات جمع الضرائب، ومن ثمّ فقد عاش اقليم توات على غرار باقي الأطراف الصحراوية الأخرى طوال الفترة التي سبقت مرحلة الاحتلال الفرنسي لها مُستقلة عن أيّ وصاية سياسية، وهو الوضع الذي اصطلح على تسميته ببلاد السيبة[6]. وعلى الرغم من أنّ سلطة الزوايا بما كانت تملكه من رصيد روحي حاولت أن تسّد ذلك الفراغ السياسي، إلاّ أنّ شساعة الجغرافية، وعدم امتلاكها للآليات والوسائل الردعية حالا دون ذلك.

وتُشير بعض المعطيات التاريخية إلى أنّ طبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية، ومجتمع بلاد السيبة اتسمت بكثير من الحذر وغالبا ما تجنّب العثمانيون التدخّل المباشر في هذه المناطق إلاّ في الحالات المرتبطة بتحصيل الضرائب، خاصّة ضريبة اللازمة. وهي ضريبة كانت تُفرض على القبائل المُستعصية على السلطة العثمانية، وفي حالة امتناعها عن تسديد مُستحقات تلك الضريبة فإنّها تُصبح عرضة للتهديد العسكري.(7)

هذا الوضع السياسي بمنظور البوعبدلي يؤكد بأنّ الصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني تمتعت بالحكم الذاتي، ويستدل على ذلك أنّه لما تأخر سكان توات عن تسديد تلك الضريبة في عهد صالح باي حاكم قسنطينة، قام بحملة عسكرية كبيرة سنة 1788 باتجاه واحات توات، وخلالها أطلق اسمه على مدينة عين صالح. ومن ثمّ فقد ساهم هذا الحدث العسكري في تكوين الوحدة السياسية للجزائر، وتمتين الروابط الثقافية والعقائدية بين سكانها.(8)

تمتد جذور العلاقة بين الشمال والجنوب كما يُقرّ الشيخ البوعبدلي إلى القرون الأولى، حيث جابت القوافل التجارية القادمة من مدن الشمال أجزاء واسعة من الصحراء، وقد ذكر هذه العلاقة وفصّل فيها كل من العلامة أحمد المقري التلمساني، والبكري، بن حوقل... ويُؤكد ذلك ما تضمنه مخطوط البسيط في أخبار تمنطيط، حيث أشار إلى أنّ السكان الأوائل لمدينة تمنطيط قدموا من الشمال، وبالتحديد من التلول الوهرانية. وأنّ جلّ الذين وفدوا على قصر تمنطيط بعد تأسيسه كانوا من اللا جئين السياسيين. إضافة الى الأعيان والعلماء.

يُبرز صاحب مخطوط البسيط في أخبار تمنطيط الوضعية التي عاشتها المنطقة أنذاك والتي شجعت العلماء الهجرة في قوله: "... اعلم أنّ تواتنا هذه أرض جذب وقلة مع بركة وقناعة، وأمان وعافية، نتهيأ فيها للعبادة والديانة، والرياضة والزهادة، ولذلك كثر فيها الأولياء والصالحون، إن قلّ فيها الرزق فقد كثر فيها الأمان والايمان".(9)

من العلماء الذين كان لهم الأثر الكبير في تلك التحولات التي عرفتها منطقة توات خاصة على الصعيد الثقافي ذكر صاحب مخطوط البسيط.. القاضي العصنوني الذي ورد تمنطيط سنة875هـ، والشيخ المغيلي سنة 892 هـ.(10)

كما أنّ المسائل الفقهية التي أُثيرت في إقليم توات وامتداد صداها إلى بلاد العالم الاسلامي، ومشاركة العلماء في اثرائها بآرائهم المختلفة، دليل آخر على على أنّ الوحدة الثقافية بين الشمال والجنوب وحدة حقيقية، ولم تكن من باب الافتراضات والتكهنات.

إنّ الارتباط التاريخي بين الإقليمين التلي والصحراوي للجزائر بقي مُتواصلا حتى أثناء التوسع الاستعماري في الجزائر، وهذا ما أكدته وجسدته المقاومات الشعبية التي قامت في الشمال، والتي أوجدت قواعد لها في الجنوب، كما أنّ المقاومات التي انطلقت بالجنوب كان لها امتدادا وانتشارا في الشمال. من تلك المقاومات نذكر على سبيل المثال لا الحصر: مقاومة أولادسيد الشيخ، بوعمامة، وبوشوشة الذي لجأ الى قورارة واتخذ منها قاعدة للهجوم على ورقلة.[11] لذلك أدركت فرنسا أنّ هذا الارتباط أضحى يّشكّل خطرا على السياسة الكولونيالية في الجزائر، وصار من العقبات التي يجب إزاحتها بشكل مُمنهج ومُقنن.

لقد حاولت السلطة الاستعمارية منذ أن وطئت أقدامها المناطق الصحراوية قطع هذا الارتباط، خاصة في مجاله الثقافي، لذلك حاربت التعليم الديني، ومنعت القضاء الاسلامي لأنّ القضاء على التعليم الديني أضحى بالمنظور الفرنسي ضرورة بالنسبة للحكم الاستعماري، لأنّه يعززه ويرسخ أفكاره، بمعنى أنّ المدرسة كانت تُمثل وسيلة ثالثة لإتمام الاستعمار بعد الاحتلال العسكري والقضائي. لإثبات التفوّق الحضاري للعنصر الفرنسي.[12]

البعد الإسلامي لمنطقة توات:

شكّلت منطقة توات بموقعها الجغرافي الممتاز ومنذ أزمنة تاريخية بعيدة حلقة تواصل بين إفريقيا وبلاد المغرب، ومركز عبور للقوافل التجارية والحجّية بين المغرب والمشرق، وبين تلمسان والسودان. ساهمت هذه المعطيات الجغرافية والحضارية بشكل أساسي في تبلور ونضج الحركة العلمية والفكرية بالمنطقة، والتي حمل لواءها مجموعة من الأعلام في اختصاصات مُتنّوعة، أسهموا من خلالها إسهامًا بالغًا في إثراء الحضارة الإسلامية.

من الأحداث التاريخية التي عرفتها منطقة توات وامتد صداها، وبلغ مداها العالم الإسلامي قضية ما عُرفت في التاريخ بـ: "يهود توات". فبقدر ما ارتبطت هذه المسألة وخلّدت منطقة توات في

إثراء المنظومة الفقهية الإسلامية، إلاّ أنّها كشفت لنا بحسب الشيخ المهدي البوعبدلي حالة التدهور التي انتابت البلاد، وآلت إليها الأوضاع الثقافية، الاقتصادية والسياسية. وتجلى ذلك في تباين موقف العلماء واختلافهم حول المسألة من خلال بروز مدرستين فقهيتين: الأولى تزّعمها العلامة محمد بن يوسف السنوسي مُجدد علم التوحيد بتلمسان، والثانية قادها العلامة أحمد بن زكري مفتي تلمسان. وانتصر لكل من المدرستين نُخبة من علماء فاس، تونس، وبلاد الصحراء[13].

يُشير الشيخ البوعبدلي في معرض حديثه عن المسألة إلى أنّه إذا دقّق المرء الأمر في هذه المسألة أدرك بأنّ المدرسة التي ناصرت وأبدت تأييدها للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي لا تضّم بين عناصرها أيّ مُوظف في السلطة، بخلاف المدرسة التي ناصرت العضوني. وهذا إن دلّ على شيء يُضيف البوعبدلي إنّما يدل على الدور الخفيّ الذي قامت به الطبقة الحاكمة في تأجيج هذا الخلاف وتوسيع نطاقه.

وكان فضل العلماء الذين انتصروا لكل من الرأيين أن قاموا بعرض المسألة ببيان وتفصيل، ولم يخرجوا بها عن إطارها الفقهي المنوط به. وقد زكّى الشيخ البوعبدلي موقف العلامة الونشريسي الذي عرض المسألة بنزاهة في كتابة المعيار المعرب عن فتاوى إفريقيا والأندلس والمغرب[14].

موقف الشيخ البوعبدلي من المسألة:

من المُميزات التي انفرد بها الشيخ البوعبدلي عن غيره من المُؤرخين أنّه لا يكتفي بعرض الوقائع التاريخية بطابع سردي، بل يعمد دائما إلى تفعيل تفاصيلها من خلال إبداء موقفه من القضايا والمسائل المطروحة. وهو ما لمسنا من مسألة يهود توات، حيث يرى بأنّ هذه المسألة المرتبطة بيهود توات حملت في طياتها مضمونين أساسيين: المضمون الأوّل لخّصه الشيخ البوعبدلي في أنّ القاضي العصوني في استفتائه لعلماء بلاد المغرب العربي صاغ المسألة في سؤال تمحور حول حكم الشّرع الإسلامي في معاملة "أهل الذمة" الذين اعتدى عليهم المغيلي، وحرّض العامة على هدم معابدهم، واصفا إيـّاه وابنه بالتشغيب.

وأمّا المضمون الثاني من المسألة دائما بحسب الشيخ البوعبدلي يرتبط بوضعية اليهود في المجتمع الإسلامي، ففي منطقة تمنطيط أضحت الطغمة اليهودية تُهيمن على الحياة العامة في المنطقة،

حيث لم يكتف اليهود باحتكار الاقتصاد فحسب، بل امتد تسلّطهم وطُغيانهم إلى أن صاروا يتحكّمون في رقاب المسلمين عامتهم وخاصتهم، وهو الوضع الذي يتنافى والشروط التي أقرّها الإسلام في توفير الحماية لأهل الذمة[15].

يبدو واضحا من خلال ما لمسناه من كتابات وأبحاث الشيخ البوعبدلي تأييّده المُطلق لموقف محمد الطيب صاحب مخطوط القول البسيط، وإبراهيم بن عبد الجبار الفقيقي من مسألة يهود توات. وعلّل البوعبدلي اعتماده على المخطوطين السابقين. بأنّ الأول تعرض لها كمؤرخ سارد للأحداث، وتجلى ذلك في قول محمد الطيب: "على ما بلغنا من أمرهما.."[16] وأمّا الثاني فقد وضع المسألة في إطارها الطبيعي، وتحاشى تناولها من الجانب الفقهي.

فالشيخ المغليلي في نظر البوعبدلي عالم من علماء الإسلام وأئمته، والذي وإن خذله قومه، فقد تبوّأ مكانة مرموقة خلّدها له التاريخ، فجعله في مصاف الصديقين والشهداء والصالحين. ومن جانب آخر فقد وصف سكان تمنطيط الذين تقاعسوا عن مناصرة الشيخ المغيلي، بأنّهم من الذين ألفوا التملّص بشتى الوسائل من المسؤولية، وانتحال الأعذار وإلصاق التُهم لغيرهم، والتستّر في استغلال الدّين وتسخيره للأغراض الدنيوية، والتاريخ يعيد نفسه[17].

مسألة دينية أخرى أثيرت تفاصيلها في إقليم توات وامتد صداها إلى أجزاء هامة من العالم الإسلامي، وشغلت الناس في زمانه، من ثمّ فقد شارك في صياغتها علماء من المشرق والمغرب. يتعلق الأمر كما أشار الشيخ البوعبدلي في أبحاثه عن الصحراء بمسألة "شرب الدخان".

وكانت تمبكتو مُنطلقا لهذه النازلة الفقهية الجديدة، حيث تعوّد سُكانها منذ الفترة التي سبقت اعتناقهم الإسلام على تناول هذه المادة، وقد فصّل صاحب كتاب "الليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران" محمد بن يوسف الزياني متحدّثا عن فترة حكم أحمد المنصور الذهبي قائلا:"...وفي أيّامه ظهر الدُخان بالمغرب وانتشر، وسببه أنّ أهل السودان أتوا له بهدية، وكان أهل السودان يشربون الدخان، ويستعملونه استنشاقا وشربا، حتى من لم يشربه منهم يقولون أنّه به مرض،... وكانوا كلّما شربوه واستنشقوه ناولوه لجلسائهم من سكان مراكش، فعمّت بلوته، وحينئذ

أمر السلطان أحمد المنصور بحرقه، فحرق منه في يوم واحد مئة حمل، وفي يوم آخر مائة ألف حمل..."[18]

لقد أثارت مسألة شرب الدخان أو ما يعرف بتناول عشبة التبغ ضجة كبيرة بين العلماء في المشرق والمغرب، وكان العياشي في رحلته قد أشار إلى كتاب ألف في هذا الشأن، ويرتبط الأمر بكتاب: "محدد السنان في محور إخوان الدخان" للشيخ عبد الكريم بن الفكون القسنطيني تضمن عدد من الأجوبة صدرت عن الأئمة والعلماء في هذه المسألة، وفي ذلك يقول العياشي: "...قلت والذي ارتضيته ما ذكره شيخنا اللقاني رضي الله عنه من الوقف على الميل القوي إلى التحريم، وغالب المُتورعين من الفقهاء، ومعهم الصوفية أرباب البصائر الصافية يصرخون بالتحريم"[19].

كما أنّ الشيخ أحمد ابن أبي محلي خاض هو الآخر من حاضرة بني عباس في المسألة، حيث أشار إلى ذلك في مؤلفه الإصليت بقوله: "... ففي آخر زمان المنصور، ظهرت الشجرة المختلف في حكمها وهي تبغ على وزن ضرب أو بغى ".[20] ومن باب التحرّي وعدم التسرع بإصدار الأحكام راسل الشيخ ابن أبي محلي شيخه الأزهري سالم السنهوري يستفسره في تلك المسألة، كما أنّه لم يكتف باستفسار شيخه، بل تحرّى الإجابة من خلال توجيهه السّؤال نفسه إلى العلماء الذين يعرفهم [21].

ويتضح موقف الشيخ البوعبدلي من المسألة في قوله أنّه:"... لمّا أثيرت المسألة وتصدى لها بعض الفقهاء بالتحريم أمثال عبد الكريم بن الفكون واللقاني،...رماهم البعض بالتعصّب والتزمت، إلاّ أنّ تطوّر العلم وما بلغه الإنسان من رُقي حضاري، جعل العلماء وعلى رأسهم الأطباء يُؤكدون بالأدّلة العلمية الأضرار التي يُسببها شرب الدخان، ومدى خطورته على صحة الإنسان."[22]

منهجه الشيخ البوعبدلي في أبحاثه:

اعتمد الشيخ المهدي البوعبدلي في أبحاثه وكتاباته حول إقليم توات المنهج التاريخي الذي يستند على جمع المادة التاريخية وتنقيحها، فترتيبها ثم موازنتها، وتحليلها، وفي الأخير الخروج بتقيّيم شامل للموضوع مع إبداء رأيه وموقفه حول بعض المسائل المرتبطة بمنهج البحث. إذ كثيرا ما نرى

الشيخ البوعبدلي يُركّز في بحثه على الجوانب الخفيّة التي كثيرا ما يغفل عن ذكرها المُؤرخون، أو يتّم الإشارة إليها عرضا لا غرضا في المراجع والبحوث التاريخية لقلّة المصادر أو فقدان بعضها الآخر.

من ذلك مثلا نذكر أنّه على الرغم من أن الشيخ عبد الكريم المغيلي اكتسى شهرة واسعة بين المرخين، إلاّ أنّ هناك جوانب مهمّة من ترجمته بمسقط رأسه قبل هجرته إلى إقليم توات، خصوصا ضبط تاريخ هجرته وظروفها وأسبابها. وفي هذا الصدد يقول الشيخ البوعبدلي بأنّ جلّ المترجمين للشيخ المغيلي خاصّة المعاصرين منهم اعترفوا بأنّهم أهملوا ذكر تاريخ هجرته إلى توات[23]. وفي السياق ذاته يُشير البوعبدلي بأنّ تاريخ هجرة الشيخ المغيلي إلى توات كان في حكم التراث المفقود، ولم يصل إلى عموم القراء إلا في السنوات الأخيرة، وتحديدا مع مطلع القرن العشرين الميلادي.

وارتبط ذلك مع احتلال الفرنسي للصحراء، حيث قام أحد الضباط الفرنسيين بجمع أهم المصادر المخطوطة في إقليم توات، وترجمها إلى الفرنسية في سنة 1504هـ- 1920م ضمن مجلد معنون بـ: "أربعة قرون من تاريخ الصحراء". من بينها مخطوط "القول البسيط في أخبار تمنطيط" لصاحبه محمد الطيب بن عبد الرحيم الملّقب بابن بابا حيدة، والذي يعد من أهم المصادر التي أرّخت لتاريخ المنطقة وأعلامها[24].

نستشف مما سبق ذكره بأنّ الشيخ البوعبدلي اهتدى إلى هذا المخطوط، وقام بدراسته قبل أن يتم تحقيقه من قبل الأستاذ فرج محمود فرج سنة 1977، وهو ما أكّده في قوله:"...ألقيت عدة محاضرات بأدرار منذ سنة 1978 ركزّتها على ما استفدته من مجموع ما جمعه الضابط الفرنسي، خاصة مخطوط القول البسيط...، وإنّي من حسن الصدف أيضا أن اطلعت مدة إقامتي بأدرار على نسخة أصلية من المصدر"[25].

يُشير صاحب مخطوط "القول البسيط... إلى تاريخ هجرة المغيلي إلى تمنطيط في قوله: "...وفي تلك السنة أي 882هـ جاء الشيخ بن عبد الكريم المغيلي لتمنطيط، ونزل بأولاد يعقوب، وانتقل منها إلى بوعلي، وبه ضريحه ومقامه، وهو مشهور بالعلوم الظاهرة والولاية الباطنة، فهو آية الله في أرضه وحجّته في شريعته"[26].

في حديثه عن الأسباب الحقيقية لهجرة المغيلي إلى توات، وهي الأسباب التي غفل عن ذكرها جل المؤرخين، وحصرها المعاصرون منهم ضمن إطار الجوّ المضطرب الذي عرفته المملكة الزيانية آنذاك، بسبب التهديدات التي كانت تُحيط بها خاصة بعد سقوط غرناطة 1492 آخر معقل للمسلمين في الأندلس. ربط البوعبدلي بين الظروف السياسية المضطربة التي شهدتها تلمسان، وبين هجرة المغيلي، حيث يُشير إلى أنّ اكتشاف المؤامرة التي حيكت ضد السلطان المتوكل على الله، واستهدفت الإطاحة بملكه واغتياله، انجرّ عنها توجيه الاتهام إلى جملة من العلماء، كان على رأسهم الإمام أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار، الذي يعتبره البوعبدلي من ضحايا هذه المؤامرة، وتبعا لذلك فقد صُودرت أمواله، وهُدمت داره سنة 874 هـ، بعدما مكنّه أنصاره من مغادرة تلمسان[27].

وبحكم العلاقة العلمية التي كانت تربط بين الشيخين الونشريسي والمغيلي، وهي علاقة الأستاذ بتلميذه، إذ يُعتبر المغيلي من أكثر التلاميذ تقرّبا من شيخه الونشريسي. وخوفا من أن يلحقه الأذى فضّل المغيلي مُغادرة تلمسان، والتوّجه إلى تمنطيط بحثا عن الأمن والاستقرار. ويعدّ هذا الحدث من أهم الأسباب التي دفعت المغيلي إلى الهجرة في نظر البوعبدلي، كما توجد أسباب أخرى يضيف صاحبنا ترتبط بالظروف التي عاشتها مدينة تمنطيط والصحراء عامة. إذ اشتهرت منذ تأسيسها كملاذ آمن، وحصن منيع للاجئين والمُضطهدين، وضحايا القمع السياسي والعقائدي من مختلف البقاع والمناطق[28].

وهو الرأي ذاته أكّده أبو القاسم سعد الله في إشارته إلى الأسباب التي أدت إلى نزوح عدد كبير من علماء تلمسان إلى توات حيث يقول: "...الاضطرابات السياسية التي كانت تعرفها تلمسان إبّان العهد الزياني، وما ترتّب عن ذلك من فساد الحكام، وصمت العلماء، دفع بالعديد من علماء تلمسان إلى مغادرتها والتوّجه إلى توات"[29].

كما يمتاز الشيخ البوعبدلي في منهجه التاريخي بالوقوف عند الأخطاء وتصويبها وفق طريقة الموازنة والمحاكمة الزمنية التاريخية. ونلمس ذلك في خضّم دراسته لمخطوط: القول البسيط في أخبار تمنطيط، حيث سجّل على بعض المؤرخين مآخذ عدة نذكر منها: أنّه لما صدر كتاب "دليل مؤرخ

المغرب" للعالم الشهير عبد السلام بن سودة الفاسي في منتصف القرن العشرين الميلادي، والذي خصصه لرصد نوادر المصادر المخطوطة لتاريخ المغرب العربي.

أشار في بحثه إلى مخطوط القول البسيط... وخلال هذه الإشارة يقول البوعبدلي بأنّ ابن سودة ارتكب غلطات فادحة في عنوان الكتاب، وفي اسم مؤلفه وموضوعه، وحتى في وصف حجمه، وهو ما يدل بأنّه لم يطلع على الكتاب، وإنّما اعتمد على رواية أحد السكان من منطقة توات وصفه له[30]. وهو ما يُدعم ما ذهب إليه البوعبدلي، لما أشار إلى أنّ المخطوط ظلّ مجهولا، ولم ينل اهتمام المؤرخين المتخصصين.

وفي السياق ذاته نجد البوعبدلي يركز في أبحاثه ويهتّم بالمصادر المغمورة التي لا تقع في متناول الباحثين، ففي مستهل حديثه عن ترجمة المغيلي قدّم مجموعة من المصادر التي خصصت جانبا مهما من الدراسة لهذه الترجمة ذكر منها: المعيار المعرب عن فتاوي إفريقيا وللأندلس والمغرب، للشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي، وتاريخ الديباج "لأحمد بابا التمبكتي، ومؤلف البستان في ذكر العلماء والأولياء في تلمسان، لابن مريم المديوني... وكل هذه المصادر مطبوعة، ومتداولة في الخزائن العامة والخاصة. إلاّ أنّ هناك بحسب البوعبدلي تأليفا لا يقلّ أهمية في موضوع ترجمة المغيلي، ويتعلق الأمر بكتاب ألفه العلامة أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار الفقيقي تلميذ المغيلي، والذي رغم شهرته ومكانته العلمية إلا أنه لم يحظ بنشر تآلفه إلا منذ سنة [31]. أي سنة 1979 باعتبار أن المحاضرة ألقيت سنة 1978.

وتبدو أهمية الكتاب في نظر البوعبدلي كون أنّ أبي إسحاق إبراهيم الفقيقي تعرض فيه لمسألة يهود توات بطريقة مميزة، ومنفردة عن العلماء المؤيدين أو المعارضين لموقف المغيلي. حيث تجنّب معالجة الجانب الفقهي للمسألة ووضعها في إطارها الطبيعي، كما أدان سكان تمنطيط بما فيهم العلماء الذين جرّهم حب الدنيا إلى التخّلي عن مؤازرة ودعم المغيلي[32].

لم يقتصر دور المغيلي في منظور البوعبدلي على خوض معركة يهود توات فحسب، بل ساهم في قضايا دينية شائكة وحاسمة عرفتها البلاد الإسلامية، كمسألتي الخلافة الإسلامية، والثقافة الأجنبية. فيما يتعلق بمسألة الخلافة الإسلامية كتب المغيلي للسلطان محمد رنفا بن يعقوب وصيّة في

شؤون الحكم وتنظيم الدولة، مُشترطا مراعاة الاستقامة، اليقظة والأهلية كشروط أساسية لتولي المسؤولية. كما اشترط على الأمير أن يُنتخب من بين طبقات العلماء الذين يكوّنون مجلس الشورى[33].

والمسألة الثانية المرتبطة بالثقافة الأجنبية ونقصد بذلك علم المنطق، فإنّ الشيخ المغيلي بحسب البوعبدلي يُعدّ من أكبر المدافعين على استخدامه، وهو ما جعل الإمام السيوطي يُنكر عليه ذلك في كتابه: القول المشرق في تحريم علم المنطق، فوقعت مراسلة بين العالمين.

وتجدر الإشارة إلى أنّ علم المنطق كان قد انتشر بشكل واسع في بلاد المغرب، بينما ظلّ حبيس دائرة ضيقة في بلاد المشرق الإسلامي، بسبب تحريمه من قبل بعض الفقهاء والمحدثين من أمثال الإمام النووي، بن تيمية، والسيوطي. ويعد هذا الأخير من العلماء الذين بالغوا في تحريمه، وعدم جواز الاشتغال به في عدة مؤلفات منها: "جهد القريحة في تجريد النصيحة"، وهو تلخيص لكتاب "نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان" لابن تيمية[34].

بدا واضحا من دراسته للخلاف الذي دار حول مسألة استخدام علم المنطق أنّ الشيخ البوعبدلي كان مع الحديث الذي ينّص على أنّ الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها مُستدلا بما ذهب إليه الشيخ عبد الرحمن الأخضري في تفصيله لجواز الاشتغال بالمنطق عندما قال[35]:

فابن الصّلاح والنواوي حرما *** وقال قوم ينبغي أن يعلما**

والقولة المشهورة الصحيحة *** جوازه لكامل القريحة**

ممارس السنة والكتاب *** ليهتدي به إلى الصواب.**

من العلماء الذين ساهموا في نشر علم المنطق اليوناني وترسيخه في بلاد المغرب والأندلس نجد ابن رشد الذي تصدى بالمنطق لأولئك الفقهاء والمحدثين المنكرين لاستخدامه حيث يقول: "إنّ من منع النظر في كتب الفلسفة والمنطق لأنّ قوما ضلوا به من ضعف نظرهم، كمثل من منع العطشان ماء، لأنّ قوما شرقوا بالماء، فالموت بالشرق أمر عارض، وبالعطش ضروري، والنظر في كتب القدماء واجب، لأنّه لتحقيق الحق الذي أثنى الشرع عليه، ومن نهى عنهما فكأنّما نهى عن النظر المؤدي إلى معرفة الله"[36]. وكان الإمام الغزالي قد قال: "من لا معرفة له بالمنطق فلا يوثق بعلمه".

وفي الأخير نخلص إلى القول بأنّ الشيخ المهدي البوعبدلي قد ركّز في الأبحاث التي تناول فيها موضوع إقليم توات على الروابط المتينة التي جمعت سكان الجزائر ككل، بحكم ذلك الامتداد التاريخي العريق بين شمالها وجنوبها. كما فصّل في المكانة المرموقة التي تبوّأتها توات في التاريخ الاسلامي من خلال القضايا الدينية الشائكة والحاسمة التي أُثيرت فيها، والتي تجلّت فيها روح حرية الفكر إلى أبعد الحدود. ومن ثمّ فإنّ إقليم توات بمنظور البوعبدلي عُدّ بحق مركز اشعاع حضاري لا تقل أهميته عن مراكز العواصم العلمية بمنطقة الشمال.

مراجع البحث وإحالاته

1- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، أطروحة دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، جامعة الجزائر، 1977 ص. 3.

2- البوعبدلي، المهدي، دور منطقة توات في تمتين الروابط الثقافية والحضارية بين مناطق الجنوب والشمال، محاضرة ألقاها في الأسبوع الثقافي الثالث، أدرار، 16 أفريل 1981، مرقونة. وقد نسخها الشيخ محمد باي بلعالم، في كتابه، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، الجزائر، دار هومة، 2005، ص. 30

3- ابن بطوطة، أبوعبد الله شمس الدين محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، القاهرة الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية، ج2، 1928، ص ص.205-206.

4- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد، كتاب تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لبنان، دار الكتاب اللبناني، لجنة البيان العربي، ج1، 1981، ص.93.

5- العياشي، ماء الموائد أو الرحلة العياشية إلى الديار النورانية، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي 2006.، ص.79.

6- يقصد بها المناطق المجردة من أي خضوع أو ولاء لأي سلطان مدني، وهي المناطق المعروفة بصعوبة اختراق جغرافيتها وقلة مواردها، فالسيبة لم تكن تحمل مدلولا اقتصاديا فحسب من خلال التهرب عن تقديم الضرائب، بل كانت تعبر أيضا عن رفض الانصياع لأوامر السلطة، وهي تمثل باختصار وضعية اللادولة. وعرفها محمد الخليفة بن سيد المختار الكنتي قائلا: "السائبة الخالية من سلطان أو أمير أو رئيس خير يدفع من ظلم الظلمة، وجور الجورة وعدوان العادين وسطوة العادين." ينظر:- محمد الخليفة الكنتي، الرسالة الغلاويّة، تحقيق ودراسة، حماه الله ولد سالم الطبعة الأولى، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب الأقصى، 2007. ص.201.

7- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص.504. اقتصرت العلاقة بين هذه المناطق والدولة العثمانية على جباية الضرائب مقابل السماح للقبائل الصحراوية بالهجرة الفصلية نحو المناطق التلية بهذه التبادل التجاري. ينظر: - الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 473. ينظر أيضا: سعيدوني ناصر، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800- 1830)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 87.

8- بلعالم محمد باي، نفس المرجع. ص.41.

9- البوعبدلي، المهدي، أضواء على منطقة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ أدرار، أدرار، 3-4- ماي 1985، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988، ص. 65.

10- الطيب محمد بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص 11

11- البوعبدلي، "ماضي أدرار الحضاري والثقافي عبر العصور"، محاضرة مكتوبة بخط الشيخ المهدي البوعبدلي ص.46. ينظر أيضا: بلعالم محمد باي، نفس المرجع. ص.42.

12- بلعالم محمد باي، نفس المرجع. ص.43.

13- بلعالم محمد باي، نفس المرجع. ص 36، لما وقعت نازلة اليهود بتوات ووقع الخلاف بين الشيخ المغيلي والقاضي العصنوني، عرضت المسألة على علماء المغرب العربي، وممن أجاب في المسألة أبو محمد الرصاع مفتي تونس، وأبو مهدي الماواسي مفتي فاس، ابن زكري مفتي تلمسان، والقاضي أبو زكريا يحيى ابن أبي البركات الغماري وعبد الله بن سبع التلمساني.... ينظر. العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج5، المطبعة الملكية، الرباط، 1976، ص 106-107: ينظر أيضا: آدم عبد الله الآلوري، الإمام المغيلي....

14- بلعالم محمد باي، نفس المرجع.، ج2، ص 37.

15- البوعبدلي المهدي، "أضواء على مدينة تمنطيط ودور المغيلي بها في قضية يهود توات"، مجلة الثقافة، سنة 16، عدد94، 1986، ص. 89. ينظر أيضا: المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ أدرار، ص 67.

16- الطيب محمد بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص 31

17- بلعالم محمد باي، نفس المرجع، ص 38.

18- نفس المرجع. ص 40.

19- أبو العباس أحمد بن عبدالله بن القاضي بن أبي محلي السجلماسي، إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت أو عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر، مخطوط دار الكتب المصرية القاهرة، رقم 431 أدب. ص ص 402 – 404.

20- نفس المصدر، ص. 353.

21- بلعالم محمد باي، نفس المرجع. ص.40.

22- البوعبدلي، المهدي، أضواء على منطقة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات. ينظر أيضا: ملتقى ماضي أدرار الحضاري والثقافي عبر العصور، ص.25.

23- البوعبدلي، المهدي، الملتقى...، ص 64. من المصادر التي قام الرائد Martin جمعها وترجمها إلى الفرنسية ذكر البوعبدلي: – رحلة الحاج عبد القادر التنيلاني، – رحلة مولاي بن هاشم بن أحمد، – رحلة أبي زيد عبد الرحمان بن عمر التواتي، – رحلة العياشي– إضافة إلى تأليف أحمد بن أبي محلي. ونشرها في مجلد سماه:

- Quatre Siècles D histoire Marocaine Au Sahara de 1504 a 1902, Au Maroc de 1894 a 1912, D après Archives et Documentation D origines, Paris, Lib Lheroux, 1923.

وهي المصادر التي اعتمدها الشيخ البوعبدلي في جل أبحاثه. ينظر: – البوعبدلي المهدي، ملتقى ماضي أدرار الحضاري والثقافي عبر العصور، ص ص. 4–5.

24- البوعبدلي، المهدي، أضواء على منطقة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ أدرار، ص 64.

25- البوعبدلي المهدي، "أضواء على مدينة تمنطيط ودور المغيلي بها في قضية يهود توات"، مجلة الثقافة، سنة 16، عدد94، 1986، ص. 85.

26- الطيب محمد بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص 31.

27- البوعبدلي، أضواء على منطقة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ أدرار، ص 65. حيث هاجر إلى فاس وتوفي بها. البوعبدلي، ملتقى ماضي أدرار الحضاري والثقافي عبر العصور، ص.25.

28- البوعبدلي، أضواء على منطقة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ أدرار، ص 66.

29- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، لبنان، دار المغرب الإسلامي، 1998، ص 357.

30- البوعبدلي المهدي، "أضواء على مدينة تمنطيط ودور المغيلي بها في قضية يهود توات"، مجلة الثقافة، سنة 16، عدد94، 1986، ص. 85.

31- البوعبدلي، أضواء على منطقة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ أدرار، ، ص 68.

32- نفس المرجع، ص 67.

33- هذه الوصية التي هي في الأصل أجوبة عن تقدم بها الأسقيا الحاج محمد إلى الشيخ المغيلي، وهي أشبه شيء بـ: الأحكام السلطانية للماوردي 450هـ، أو هي أقرب إلى كتاب، السياسة الشرعية لابن تيمية (728هـ) إلاّ أنّ المغيلي يمتاز في مدونته بإيجاز من غير خلل، وتفصيل من غير ملل، وبأسلوب أدبي جذاب. ينظر الألوري آدم عبد الله، نفس المرجع، ص 40.

34- الألوري أدم عبد الله، نفس المرجع، ص 21.

35- البوعبدلي المهدي، "أضواء على مدينة تمنطيط ودور المغيلي بها في قضية يهود توات"، مجلة الثقافة، ص. 94.

36- الآلوري أدم، نفس المرجع، ص 23.